بمناسبة القمة

حتمية اعتراف الأنظمة بإسرائيل

الدكتور عبد الستار قاسم

2002/2/19

توالت ردود الفعل عقب الإعلان بأن المملكة العربية السعودية على استعداد لتطبيع العلاقات مع إسرائيل إذا انسحبت من الأرض العربية المحتلة عام 1967. تعددت الآراء وتباينت بين مؤيد لما أسماه بالعقلانية ودفع إسرائيل في زاوية من الإحراج على المستوى العالمي وبين معارض رأى أن الحكم السعودي يفتح أرض رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام اليهود الصهاينة. بين هذا الطرف وذاك نجد آراء كثيرة تأخذ زوايا متنوعة.

يؤدي النظر إلى الموضوع من زاوية ذاتية إلى تعدد الآراء وتنافرها وذلك تبعا لتنافر المنطلقات الذاتية الذي تحكم الأشخاص أو الكتاب. ويبدو لي من مراجعة العديد من افتتاحيات الصحف وآراء عدد من الكتاب أن التحليل السياسي لا ينطلق حقيقة من منهج تحليلي وإنما يقوم على مواقف ذاتية مسبقة تتحكم في كيفية سير التحليل نحو النتيجة التي يرغبها الكاتب. فإذا كانت الجريدة مثلا تميل لصالح الحكم السعودي فإنها تخرج بعبارات التبجيل والتأييد، وإذا كانت تعارض هذا الحكم فإنها تتبنى عبارات هجومية واستنكارية. وإذا أراد المراقب أن يعرف رد فعل رئيس تحرير جريدة معينة حول موقف معين لحكومة معينة فإنه لا يجد ضرورة لقراءة ما يكتب لأن ما سيكتبه هذه المرة كتبه مرارا قبل ذلك ولن يكون هناك جديد، ومن الممكن أن ينظر إلى مصدر تمويله فيقرأ ما سيكتب قلمه. عبارات التبجيل كما هي عبارات الاستنكار تتكرر اجترارا. ويبدو أن الكثير مما على العربي أن يقرأه عبارة عن ثمن يدفعه الكاتب لقاء ما يقبضه.

على الرغم من ردود الفعل الكثيرة حول الموضوع لم أكن كمراقب ونشط في المجالات السياسية والاجتماعية أجد ما يبرر كل هذا الاهتمام لأن نظرة أغلب الأنظمة العربية تجاه إسرائيل مبنية أصلا موضوعيا وليس ذاتيا. مواقف أغلب الأنظمة مبنية حسب محددات عدة تترك هامشا ضيقا جدا للمبادرة الذاتية أو اتخاذ القرار باستقلالية. تقوم هذه المحددات على إرادات ليست نابعة من الذات وإنما تعبر عن رؤى خارجية لها وقع على حرية العرب في الحركة. قد يكون الحكام العرب متمتعين بحرية التفكير كما هو أي شخص في هذا العالم، لكنه من الواضح أن هذا التفكير يصعب أن يخرج من الرؤوس ليشق طريقه بوساطة إرادة فاعلة. لا يصر أغلب الحكام العرب على البحث عن الذات وبالتالي لا يصرون على ترجمة ما يمكن أن يأملوا به إلى فعل ينبثق تدريجيا إلى نتائج. الدليل على ذلك أن الوعود التي تقدموا بها إلى شعوبهم عبر الزمن حول القضايا الكبرى مثل تحرير الثروات والسير نحو الوحدة العربية أو على الأقل التكامل الاقتصادي تحولت إلى تمنيات تندثر تحت سيل من التبريرات.

تقوم أغلب الأنظمة العربية على حرية مبنية على ما يسمى بفن الممكن وليس الإصرار على ما هو ممكن. وهذا يعني أن الباب مفتوح أمام إرادة الغير بينما تبقى الإرادة العربية منتظرة الإذن بالدخول. بل أن بناء أغلب الأنظمة العربية كان مشروطا بهذا البعد والذي يشكل أيضا أساسا للاستمرارية. صحيح أن شرعية الحكم تلبس ثوبا عربيا إلا أن منحة الاستمرار تبقى مرتبطة بمراكز قوى عالمية تتعدى الشرعية ويمكن أن تكون صانعتها أيضا. كان بإمكان بريطانيا

مثلا أن تأتي بهذا الشخص أو ذاك لتقيم معه عقدا أو بهذه القبيلة أو تلك دون أن تتغيــر معـــايير الشرعية، وبالتالي تبقى الشرعية مزاجية بيد من يقرر للعرب ما يراه مناسبا.

ولهذا لم يكن لأغلب الأنظمة العربية أن تتمرد حقيقة على إرادة الغير لأن في ذلــك مـــا ينطوي على الزوال لصالح أنظمة أخرى يميزها عما يسبقها تغير الأسـماء. إسـرائيل جـزء لا يتجزأ ولا ينفصل عن إرادة هذا الغير، وما ينطبق على امتثال العرب لذلك الغيـر ينطبــق فـــي النهاية على ما يتعلق بإسرائيل. وما أعنيه بالامتثال هنا ليس بالضـرورة الاسـتجابة السـريعة والفورية وإنما البقاء ضمن دائرة الممكن الذي يمكن أن نحصل عليه من الغير. لا يخرج العــرب عن الدائرة المرسومة ولكن بإمكانهم المناورة داخلها وفق أسس النشاط التي يقبلها الراسم. ولهــذا لم يحصل جهد جاد من أجل تحقيق المصالح العربية، وبقيت القضايا الجوهريـــة معلقـــة بـــالقوى الخارجية.

وإذا نظرنا إلى قوة الدفع العربية باتجاه تحقيق الآمال العربية نجد أنهـــا ســـارت عبـــر خمسين عاما ونيف بتناقص مستمر وهبط معه مستوى المتطلبات العربية إلى درجـــة الاعتـــراف بالواقع بمعنى التسليم له وبه. تراجعت الآمال ومعها لم تعد تلك الأحلام الجميلة ترد النائمين. لقد انتقل العرب من هزيمة إلى أخرى ومن تراجع إلى آخر علـــى مختلــف المسـتويات السياســية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، ولم يحصل إبداع إلا على المســتويين الاســتهلاكي والأمني الداخلي. ولعل في هذين الإبداعين ما يحول طوعا وجبرا دون التساؤل عـــن التـــدهور المستمر في سقف الآمال والطموحات. يستحوذ البحث عن متع الحياة على تفكير المرء ويتلبســـه بحيث يتحول الإنسان إلى عبد لشهواته ورغباته ونزواته، وتقف الأجهزة الأمنية بالمرصاد لمن لا تطوعه السياسة الاستهلاكية.

لم يعد الواقع عاملا محفزا للتغيير أو التحدي، وتحول إلى عامل للتبرير. فبدل أن تكـــون سيطرة قوى عالمية على العرب وثرواتهم عاملا نحو التفكير في كيف الخروج، حولهـــا الترهـــل العربي المتزايد إلى مادة لإعفاء الذات لأن التصدي أو التركيز على البناء الذاتي لا يجديان نفعا. استرخى الإصرار العربي لصالح العبارة الخادعة المنمقة المعروفة بفن الممكن.

ولهذا لا أرى أن المستقبل ينبئ بما هو أفضل بالنسبة للعرب في حال استمرار المعطيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية القائمة. وليس من العسير علـــى العربـــي أن يعـــود بذاكرتـــه بالدرجة التي يسمح بها عمره الزمني ليجد أن الأمة تترنح تحت وطأة الغير ولم تستطع أن تسير بخطوات على الأقل متوازنة مع خطى العالم. الفجوة بيننا وبين الأمم تزداد وتتسع، ولو لم يكـــن النفط لما ستر الإنفاق الاستهلاكي بعض الشيء على عمق تخلفنا وانقيادنـــا لإرادة الغيـــر. هـــذا ينطبق بشكل ساطع على تعاملنا مع العدو الصهيوني.

بدأ العرب والفلسطينيون برفض الهجرة الصهيونية إلـــى فلســـطين وبـــرفض إســـرائيل والإصرار اللفظي على القضاء عليها، إلا أن تنازلاتهم انسابت عبر الزمن تبعا لطاقـــة الإنســـان العربي على استيعابه وتبريره أو عجزها عن التصدي لها. أصيب العربي بإحباط متزايـــد مهـــد الطريق لسياسات عربية يتهاوى سقفها باستمرار، وما يمكن قبوله الآن علـــى مســـتوى الشـــارع العربي كان من الممكن أن يسبب ثورة في زمن مضى. من كان يتخيل قبـــل أربعـــين عامـــا أن العرب سيعقدون اتفاقيات سلام مع إسرائيل؟ ومن كان يتوقع أن الشارع العربي سيســـكت علـــى التطورات الجديدة؟

قد أستطيع القول أن الأنظمة العربية قد تناولت موضوع التعامل مع إسرائيل بعلميـــة، أو ربما ألزمها الغير بسياسة علمية تأخذ مادتها من علم النفس في كيفية تطويع النفس الإنسانية لآفاق جديدة لم تكن مقبولة سابقا. على الرغم من العلم المسبق بأن بعض الأنظمة العربية قد ارتبطـــت

بالصهيونية مع بداية قيامها أو صناعتها من قبل الاستعمار، إلا أنها لم تكن جاهزة للإعلان عن رؤيتها في ترتيب الأوضاع في المنطقة بسبب عدم جاهزية الشارع وحتى لا تتعارض مزاجية الشارع مع هذه الرؤية، أو حتى تصبح استطاعته دون الحد المطلوب لوقف تطبيقها كان لا بد أن يمر وقت تميزه الإحباطات والهزائم. أي أن الإنسان العربي قد خضع لسياسة نفسية ممنهجة طغت على طموحاته وجعلته مطية تخضع لأثقال الآخرين.

ولهذا من المتوقع أن تعترف كل الأنظمة العربية بإسرائيل. قد تضع هذه الأنظمة شروطا الآن، لكن من شأن هذه الشروط أن تتقلص مع الزمن كما تقلصت شروط غيرها. تتراجع الشروط مع كل تراجع سياسي أو عسكري سواء كان على يد الولايات المتحدة أو على يد إسرائيل، ولا يوجد لدى الأنظمة من خطط أو سياسة تشير إلى أن تغييرا سيحصل. ستحاول هذه الأنظمة أن تنتزع شيئا من إسرائيل لإنقاذ بعض ماء الوجه، لكنها لن تحصل على شيء أكثر مما ترى إسرائيل أنه ضروري للإبقاء على ماء الوجه أمام الشارع العربي. وإسرائيل تدرك تماما أنه ليس من مصلحتها أن تجرد الأنظمة العربية من هيبتها أو بعضها لأن البدائل قد تسعى إلى إعادة تكوين النفس العربية الطموحة.